السخرية و دلالاتها في شعر عبد الله البردوني

Ironic and itsSignificance in the Poetry ofAbdullah Al-Baradoni

طالبة دكتوراه/ يحي ريمة*

د/ جودي مرداسي†

تاريخ الإرسال: 2020/08/15	تاريخ القبول: 30 / 08 / 2020	تاريخ النشر: 30 / 03 / 2021

الملخص:

السخرية هي الحدود لجغرافية البردوني،فما وصف إلا وسخر ، وما هجا إلا وسخر،وما مدح إلا وسخر،وما تعرض لموقف وطني أو محلي إلا وسخر....فالبردوني قهقهة عالية وتفجع مؤلم،هو بكاء يشبه الضحك أو ضحك يتماهى مع البكاء...وهكذا اعتمد شعره عكازة يتلمس بها طريق الحياة،وسخريته مذبة يذب بها ظلامتين : ظلامة الذات وظلامة الآخر ،هي ذي سخرية البردوني ومرامها وغاياتها،فهي وليدة بؤس وحرمان لا وليدة ترف.. فما الذي جعل الشاعر يلجأ إلى استخدام هاته اللغة الساخرة في **خطاباته**؟ وماهي **الدلالات المضمرة** التي يمكن استنتاجها من توظيف أسلوب السخرية؟ .

الغاية التي تأمل هذه الدراسة اللغوية تحقيقها .

الكلمات المفتاحية: السخرية ،خطابات، الدلالات المضمرة،الذات،الآخر.

المؤلف المرسل: يحي ريمة rimalettre87@gmail.com

*-جامعة باتنة 1 – الحاج لخضر -باتنة (الجزائر)rimalettre87@gmail.com

†جامعة باتنة 1 –الحاج لخضر –باتنة (الجزائر)Djoudi_merdaci@gmail.com

Abstract:

Albaradoni's ironic style is without limits. His description is ironic, his satiric poetry is ironic, hispraising is ironic and even the way he deals *with all issues, whether national or international, is also ironic. It is about his severe pain andgreat joy, a mixture of laughter and tears. He, thus, usedhispoetry as a guide in lifeand irony, which is originated, not fromluxury but frommisery, an arm in the face of injustice towards the self and the other.*

The present study attempts to answer the following questions: Whatmotivated the poet to use such ironic language? What are the implicit meanings that we can infer from using this style?

The goal that this language study hopes to achieve .

Key words:Irony/ Discourse /Implicitsignificance/Self/Theauthor

.*** *** ***

مقدمة:

السخرية سلاح اتخذه المبدعون لقهر واقعهم المرير، فأخذوا يصورون هذا الواقع، وينقدونه من خلال ضحكة مغموسة بألم المعاناة، حاولوا من خلالها أن يصلحوا ويغيروا واقع أمتهم، فتغلغلوا في تركيبة النفس البشرية، لينتزعوا منها الضحكة بدل الدمعة، لتكون طوق النجاة في بحر المعاناة الذي تعيشه أمتهم، لذلك كان الأدب الساخر نبض حياة الأمم، فلا يخلو منه أدب أمة حية .

إذا فالسخرية تتنوع أهدافها بتنوع الحياة المعاشة، لكن ما لا يقبل الجدل أن أسماها وأعلاها، هو ذلك النوع الراقي الذي يستطيع به المبدع أن يقف على جراحات الأمة، يطببها ويخرجها مما هي فيه بلمسة ضاحكة تحمل دمعة المعاناة، وهذا أدب لا يستطيعه إلا من جرب الحياة، وخاض غمارها، فعلمته ودربته أن يستبدل الابتسامة بالدمعة، فالسخرية بهذا التصور قدر العظماء من البشر، العظماء الذين يتلمسون أعماق أمتهم، ليصلوا إلى قلوبها عن طريق ضحكة، يرمون من ورائها كشف معاناة هذه الأمة.

ورحم الله أبا الطيب عندما قال:

وكـم ذا بمصـر مـن المضـحكا ت ولكنـه ضـحك كالبكـا[1]

فالأدب الساخر الذي يسعى إلى الإصلاح وإبراز مشاكل الأمة يتوهج كل ما زادت عليه الضغوط، ويفرز لنا إبداعاته كلما هبت المعاناة على شاطئه الإبداعي، فالإبداع فيه مقترن بالمعاناة. فالساخرون ضحكوا من معاناتهم ليقفوا مع أمتهم في وجه محنتها، ويغيروا واقعها للأفضل، لذلك فانتزاع البسمة بدلا من الدمعة للوصول إلى هذه الأهداف أمر صعب يتطلب مقدرة عالية وموهبة جبارة، لذلك وجدنا أن الأدب الساخر لا يكون في إبداعات المبدع إلا بعد نضوج تجربته الشعرية، وبعد أن تعلمه الأيام كيف يضحك بدلا من أن يبكي يقول أدونيس: "الأدب الساخر لون صعب الأداء يتطلب موهبة خاصة وذكاء حادا وبديهة حاضرة"[2].

والأدب العربي زاخر بالتجارب الأدبية الساخرة منذ العصر الجاهلي إلى العصر الحديث، وخير دليل على ذلك أنه قسيم أهم غرض من أغراض الشعر وهو الهجاء. فنجدهم قد سخروا من خلال هجائهم، إذ تناولوا العادات التي لم يرغبوا فيها من خلال تحقيرها، والسخرية من صاحبها لكنه كان غير منضبط إلى أن جاء الأديب الألمعي شيخ الساخرين **الجاحظ**، فجعل من السخرية فنّا قائما بذاته من خلال كتاباته الساخرة. لذلك يعد أول من ألف كتابا مستقلا خاض من خلاله في النفس البشرية ليخرج من أعماقها أدبا ساخرا، جعله سوطا يضرب به متناقضات الحياة، ويخلص به الحياة مما يعتريها من المغالطات والزيف والنفاق.

وقد تأثر بالجاحظ العديد من الشعراء ومن أبرزهم في العصر الحديث هو شاعر اليمن، وابنها البار، فالبردوني عاش في زمن أطبق الجهل فيه على الناس، فقليل ما نرى من يهتم بالأدب، أو بالعلم بشكل عام لذلك أضيف إلى هموم شاعرنا هم آخر، ألا وهو عدم وجود من يستمع إليه، وإلى شكواه، لذلك قرر وفي إصرار أن يخاطب الشعب بلغة تستميله، ويستطيعها التواصل معه والبوح بما يريده من خلالها، وجد أن **اللغةالساخرة** هي أقرب طريق إلى قلوب شعب سيطرت عليه الأمية، فجعل من البسمة طريقا إلى رفض كل ما يستحق الرفض، وجعلها أمله في تعديل أوضاع بلده السياسية والاجتماعية، بلده الذي أفني عمره مناضلا في سبيله، ومجاهدا لرفع رايته بين الأمم،

وشخصية **عبدالله البردوني الساخرة**. شخصية جاذبة لافتة تغري من عبر رياضها، وذاق حلو ثمارها أن يوغل حيث أوغلت، ويبحر حيث أبحرت...

وهاته الورقة البحثية تكتسب أهمية من خلال تسليط الضوء على أدب شاعر يمني مميز، استطاع أن يأسر بأدبه القلوب، إنه **عبد الله البردوني**، شاعر لم تمنعه ظروفه القاسية التي عاناها ليكون حقا مبدع المعاناة. يقول عنه هلال ناجي "شاعر محروم حرمه القدر نعمة البصر وحرمه الهرم الاجتماعي أن يعيش مرفها بل حتم عليه أن يتجرع غصص الفقر مع أولاد الفلاحين من أقرانه، ..."[3]،ومع كل هذه المعاناة نجده يتألق إبداعا، ويتخذ من هذه المصاعب سلما يرتقي به إلى ذرى المجد والعز، فشاعر بمنزلة البردوني يستحق أن تتناوله الدراسات، بل يستحق من الباحثين الوقوف مع كل صغيرة وكبيرة في حياته، وفي إبداعه.

أساليب البردوني الساخرة:

لكل أديب طريقة يسلكها للتعبير عن أفكاره وآرائه، وهي ما يسمى بالأسلوب. وسنحاول استقصاء أهم أساليب البردوني التي عبر فيها عن سخريته، محاولا التحرك في إطار هذه الأساليب مبينا كيفية استخدام البردوني لها، والنماذج التي تعطي الإثبات على هذا الاستخدام، لذلك حاولنا التركيز على الجانب الأكثر دورانا في أسلوب البردوني، والوسيلة التي نراها أهم من غيرها في بيان طرق معالجة البردوني لهذا الغرض ، والتي ركز البردوني من خلالها على معالجته لقضاياه الأدبية والفكرية، وقد وقفنا مع هذه الأساليب ليبين كيف استطاع البردوني أن يخضع هذا الأسلوب لأهدافه الساخرة؟ وطرق تناول هذه الأساليب، وما هو جانب التميز الذي جعل البردوني يختلف عن غيره في هذا الطرح، بل جعله على شخصية متميزة عن غيرها في تناوله لهذه المواضيع.

1- الاستفهام:

إن استخدام البردوني للاستفهام كأسلوب يبحر من خلاله "بحثا عن الحقيقة الكامنة خلف حركة الحياة في هذا الوجود، لأنه الأسلوب الذي يصاحب الإنسان في تأملاته الكونية العميقة، وينوب عن الإنسان في فرض نفسه، لسبر أغوار النفس الإنسانية، ولتفسير ظواهر الكون والطبيعة وعلاقات الناس، وتمايز البعض دون

البعض، ومفهوم أسلوب **الاستفهام** من هذا المنطلق، استطاع شاعرنا أن يوظفه في شعره"[4].

لقد كان البردوني في حيرة عقلية كبيرة يريد أن يجد جوابا لها، فانطلق يوزع تلك التساؤلات علّه يجد جوابا لما يعترك داخل صدرله من هموم ومآس، أكثر السؤال لأنه وجد فيه روحا تعلو به من أرض الواقع إلى مرتفعات التفكير في جواب لكل ما يطرح من أسئلة وحلّ يفتش عنه في كل مخبأ، ويبحث عنه في كل زاوية، وكأنه يريد أن يقول:

سـؤال عنـك يحفـر كـل تـلٍّ ويسـبر عنـك أغـوار الوهـاد[5]

فلا تكاد تخلو قصيدة من قصائده من تلك النبرة المستفهمة، حتى أصبح الاستفهام علامة فارقة في وجه قصيدة البردوني، يبث من خلاله كل همومه وأحزانه:

من أُنادي؟ وأنت صمًّا سَميعه بين صَوتي وبين أمّي قطيعهُ
من أنادي؟ من ذهانا؟ لم يجبني آه، الصمت القبور الصديعة
يـا بـلادي: أنثنـي أشغـلُ التفتيـر عنّـي وعـن بلادي الصريعـه[6]

إنها الحيرة التي تسيطر عليه فهو ينادي بلاده التي تسمعه لكنها لا تجيبه، فبلاده تحمل **مفارقة** عجيبة فهي سميعة لنداءاته لكنها صامتة عن الإجابة، لتكتمل الحيرة عند البردوني عندما لم يجد جوابا إلا من خلال صمت القبور المتشققة. إن حيرة السؤال الذي يبحث البردوني عن إجابته تسيطر على نغماته، لتكتمل تلك المعاناة في عدم وجود الجواب، فكل ما يحيط به من حياة هو مجرد قبر.

إنها الحيرة التي تسيطر على نغمات البردوني فارتحل يبحث عن ذاته من خلال تلك التساؤلات.

مـــن أنـــت؟ واســـتبقَت جـــوابي لهـــــب يحـــــنُّ إلـــى التهـــــابِ
مـــن أنـــت؟، عـــزّاف الأســـى والنـــــار قيثَـــــارُ[7] العـــــذابِ
وعـــــلى جبينـــــك قصـــــة حيـــرى كـــــديجورِ اليبـــــابِ[8]
سَـــلْ تمتمـــات العطـــر: هـــل نيســـــان يمـــرح فـــي ثيـــابي؟
من هـــــذه؟ أسطـــــورة الأحـــ ـــلامِ أخيلـــــةُ الشّهـــــاب[9]

إنها تساؤلات تعطينا حجم تلك الحيرة التي تسيطر عليه، ومقدار ذلك الرفض الذي يجتاح داخله رغبة في إزاحة كل ما يتعرض طريقه نحو التقدم والانطلاق. الانطلاق الذي يحلم به لكنه يضيعه في زحمة الواقع، فيرتد ذلك الانطلاق إلى صدى يرجع صوت أمله. إن الاستفهام يلعب دورا في تحفيز الشخص لرفض واقعه الأليم الذي يصوره من خلال التساؤلات بصورة بشعة ساخرة من المقدار الذي وصل إليه.

مـن ذا ينـاديني؟ ويـدنو مـن يـدي حتـى أهِـمَّ بلمسـه، يتنـاءى
مِـنْ أيـنَ يـدعوني؟ وأنـبُش لـهفتي عـن نبعِـهِ وأفـتشُ الإصـغاء
وأمـدُّ أسئـلة يمنـّي بعضهـا بعضـا ويضـحك بعضـها اسـتهزاء
من ألأين باحَ؟ أمِنْ هنالك؟ وبلَّمن أمْ أنـه مـن هنـا يتـراءى؟
حيـث لا أدري وأدري إنـه يعتادنـي فيحيلـني أصـداء[10].

لقد سافر البردوني بحثا عن نفسه التي أضاعها داخل سراديب وطنه، فأصبح لا يدري أهو يعيش داخل وطنه استحال إلى جوفه. تساؤلات حائرة حيرة البردوني في وطنه.

يتضح مما سبق المقدرة الكبيرة لدى البردوني في السخرية من كل ما يحيط به، سخرية يوجهها لبناء ما يراه محتاجا للبناء يعاقبهم بلسعاته الساخرة علَّها تجد طريقا إلى إحياء أمته.

2 - التّكرار:

ولو تجولنا في رحاب ساحة البردوني الأسلوبية لوجدناه يعتمد على التكرار كأسلوب، خاض به غمار تجربته الشعرية، ليقف معه على مرسى بوحه الذاتي، ويعبر من خلاله عن معاناته مع شعوره أولا، وحزنه من واقعه ثانيا.

فعندما يبدأ قصائده بتلك التساؤلات المتكررةّ، وهو يبحث عن شيء دفين داخل النص:

لمـــــاذا المقطـــــع الـــــدّاني بعيـــد عـــن يـــد العـــاني؟
لمـــــاذا الزّهـــــر آنّـــــي ولـــيس الشّـــوك بـــ**الآني**؟
لمـــــاذا يقـــــدر الأعتـــى ويعيـــا المرهـــف الحاني؟[11]

لقد دق البردوني بلفظة لماذا جرس إنذار يوقظ به القلوبّ، ويحيى به أموات أمته، فكان وقعه في بداية النص كبداية لموجة مواجهات، عاصفة تحملها ثنايا النص القادمة، وكأنه في هذه البداية يقول للقارئ استعد فأنا أنذرك بعاصفة قادمة قد قرعت لها أجراس الخطر، ليس هذا فقط، وإنما تلمح سخرية من أوضاع غيرت معالمها، فلا ينال حقه المستضعف، بينما يأخذ القوي كل ما يريد. لم يكتف البردوني في إثارة القارئ لما يقرأ، وإنما ذهب ليبين تلك المأساة التي كأنه يعيشها من خلال التكرار.

أنـــا مـــن أنـــا؟ الأشـــوا ق والحرمـــان والشـــكوى **أنـــا**
أنـــا فكـــرة ولهـــى معانيـــ هـــا التضـــنّي والضّـــني
أنـــا زفـــرة فيهـــا بكـــاء الـ فقـــر آثـــام الغـــنى[12]

عبّر البردوني بتكرار لفظة (أنا) ليقول إنّ ما يعانيه يفوق حد الاحتمال، حتى إنه أصبح يعيش المأساة بكل تفاصيلها، بل إنه أصبح المأساة نفسها، لذلك وجدناه يؤكد ذلك المعنى في شعور المتلقي من خلال تكرار لفظة (أنا) التي كانت تجسيدا لتلك المعاناة. وسخرية المتوجع الذي عانى الفقر، والجوع، والظلم، حتى إنها أصبحت شخصه،

وعنوانه، لنجده بعد ذلك يقف مع حياته شاكيا جورها، ومتألما من ظلمها، في نداءات، كأنها صرخات مستجير.

يـا **حيـاتي** ويـا **حيـاتي** إلـى كـم أحتسـي مـن يـديك صـبلًا وعلقـم
مـا **حيـاتي** إلا طريـق مـن الأشـ وال أمشـي بهـا علـى الجـرح والـدم
يـا **حيـاتي** وما **حيـاتي** ومـا معـ نى وجودي فيهـا لأشقـى وأظلـم[13]

صرخات كررها البردوني في سياق قصيدته، وكأنه يقول هذه هي الحياة التي أعيشها فهل من سبيل إلى تغييرها، كرر البردوني لفظة الحياة وكأنه يقول ما أجمل نطقها في الفم، وما أقساها في المعايشة، تلذذ البردوني بنطقها وقاسى في العيش فيها بصرخات تحيّر البردوني لمن يوجهها، حيرة اجتاحت ذاته، وكبلت قدراته.

3 - الحوار :

عرف الشعر العربي أسلوب الحوار داخل النص الشعري، وفي موروثنا الشعري أنموذجات من قصائد تقوم على الحوار أصلا، سواء أكان الحوار خارجيا أم حوارا داخليا[14]. وعندما نجول في فكر البردوني نجده يسير بنا في **حواريّاته**، التي بثها في نتاجه الأدبي ويبحر بنا في عالمه الفكري، الذي أراد أن يقوله في مسيرتنا أن يكون الآخر هو المقابل، أو الضد، أو يكون البردوني نفسه، وإنما كيف استطاع البردوني بآلته الساخرة أن يطوّع هذا الأسلوب، ليكوّن نوعا من مراكبه التي يبحر بها في سخريته من الواقع المعاش، فالطريق الذي يسلكه محير، كحيرة وطنه الذي ليس فيه طريق واضح.

صـاحبي غامـت حوالينـا النـواحي أيّ مغـــدى تبتغـــي أيّ مـــراح
قـف بنـا حتى يمـرّ السـيل مـن دربـا المحفـوف بالشـرّ الصـرّاح
أيـن تمضـي؟ والقضـا مرتقـب ومتـــاح والرحبـــا غيـــر متـــاح
والـدّجى الأعمـى يغطـي دربنـا بـرؤى المـوتى وأشـلاء الأضـاحي
أيـن تمضـي؟ وإلـى أيـن بنـا جـدّت الظلمـا فـدع حمـق المـزاح
أظلـم الـدرب حوالينـا فقـف ريثمـا تبـدو تباشير الصبـاح[15]

هذه الحوارية التي نسجها البردوني تظهر بوضوح تلك المشاعر المضطربة التي كان يعيشها الناس، فلا يعرف الساري من أين يبدأ؟ ولا أين ينتهي؟ وكل الأمور تؤدي إلى المجهول، فكل مفرداته توجه الناس إلى الضياع فالدجى أعمى والظلمة متجددة والدرب محفوف بالمخاطر الواضحة للعيان. ثم يعود البردوني ليزرع نبتة الأمل في نفوس الناس:

وهنـا نـادى علـى الـدرب فتـى صـــوته بـــين اقتـــراب وانتـــزاح
يحمـل المصبـــاح في قبضتـــه وينـــادي الركـب مـن خلف الجـراح[16]

لقد جعل البردوني هذا الفتى علامة على النجاة، فهي نجاة جديدة كمولود جديد يخرج من رحم هذه الأرض، لكنه مولود قوي يستطيع بعد إرادة الله أن شعل نور الهداية، والخلاص لقومه. لكن هذا الأمل الذي زرعه سرعان ما طفأت جذوته، وتلاشى نوره بين هبوب رياح المصائب العاتية، فلم يستطع فتاهم أن يقارع الرياح العاتية.

4 -الصورة الشعرية:

إذا عرفنا أن الصورة الشعرية هي أداة للتعبير عن الذات، وعن المجتمع بشكل عام نجد أن البردوني أخذ بهذا الاتجاه فجاءت صوره تعبيرا عمّا بداخلهّ، وتنفيسا عن معاناة ذلك المجتمع، وبما أن البحث متجه إلى أساليب السخرية عند البردوني، فإنه لن يخوض في غمار الصورة الشعرية في التجربة البردونية بشكل عام، وإنما سيحاول أن يقف مع الصورة الشعرية الساخرة، أو ما يسمى **بالكاريكاتور**، وهي ككل الصور التي يحاول من خلالها الكاتب أن يرسم لنا أبعادا جديدة للصورة تختلف عن أبعادها المعتادة، وتحوّل الكلام من مجرد هجاء عادي إلى رسم **كاريكاتوريساخر**[17]،فالصورة التي يبحث عنها البردوني هي صورة تحاول أن تعري المجتمع الفاسد، لكنها في الوقت نفسه تحاول أن ترسم شيئا من الضحكة، على وجه البؤس الذي تولد من ظلم المجتمع، فهو يحاول أن يرسم تلك الصورة التي تختّل فيه المقاييس، ونكاد لا نتمثلها في ذهننا حتى ننفجر مقهقهين[18]، إننا عندما نبحث عن مثل هذه الصور لا نبحث عن إضحاك البردوني لمجتمعه، وإنما نبحث عن ذلك السوط الساخر، الذي ألهب البردوني به جسد أمته كي تصحو من سباتها العميق، نبحث عن تلك البسمة المتلبسة بعمق

الدمعة الغائرة في جوف المعاناة من تلك المآسي التي يسبح فيها مجتمع يرزح تحت الأثقال. فعندما يرسم لنا البردوني بقلمه صورة تلك البيوت في ليله الخاص، تأتي مشبعة بنزف الألم:

هـــذي البيـــوت الجاثمـــات إزائـــي ... ليـــل مـــن الحرمـــان والإدجـــاء
مـــن للبيـــوت الهادمـــات كأنمـــا ... فـــوق الحيـــاة مقـــابر الأحيـــاء
تغفـو على حلـم الرغيـف ولـم تجـد ... إلا خيـــالا منـــه فـــي الإغفـــاء
وتضـــم أشـــباح الجيـــاع كأنهـــا ... ســجن يضــمم جــوانح الســجناء
ترنـــو إلـــى الأمـــل المـــولّي مثلمـــا ... يرنـــو الغريـــق إلـى المغيـث النـائي
وتلملـم الأحـلام مـن صـدر الـدجى ... ســودا كأشــباح الــدجى الســوداء
هـذي البيـوت النائمـات على الطـوى ... نـوم العليـل علـى انتفـاض الـداء
نامـت ونـام الليـل فـوق سـكونها ... وتغلفـــت بالصـــمت والظلمـــاء
وغفـت بأحضـان السـكون وفوقهـا ... جثـــث الـــدجى منثـــورة الأشـــلاء
وتململـت تحـت الظـلام كأنهـا ... شـــيخ ينـــوء بأثقـــل الأعبـــاء
أصغـى إليها الليـل لـم يسمـع بهـا ... إلا أنيـــن الجـــوع في الأحشـــاء[19]

لقد حاول أن يرسم البردوني تلك الصورة المأساوية لهذه البيوت، فهي ليل من الحرمان، وهي قبور تحتضن الأحياء، وغاية حلمها أن تجد الرغيف الذي أصبح مجرد خيال تعيشه في أحلامها. إنها حياة كما وصفها الساخرة من هذا الحياة، حياة من عالم آخر. إن هذا الرسم يتواصل بتلك الصورة الساخرة من هذه الحياة، الحياة التي أصبحت سجنا لا يقطنه الناس، فمن في هذا السجن انتفت عنه روح البشرية، وحكم عليه الجوع أن يصبح شبحا لا يكاد يرى. هذه الأوجاع تلتئم في صورة شيخ كبير أعياه المرض وهدته الأعباء التي يرزح تحتها، هذه الحياة المدفونة، المسحوقة، يصور لنا البردوني تجاهل الناس لها في الختام بإصغاء الليل لها، فمع سكون الليل، وهدوئه لم يستطع من ضعف وهزل تلك الحياة أن يسمعها، فاضطر إلى أن يصغي ليسمع أنينا وبكاء يتحشرج في الجوف....

5 - المبالغة :

لقد رسم البردوني بمبالغاته نوعا من الجسر الذي حاول أن يجعله مركب عبور إلى همّ أمته، وتطلعات مستقبله فعندما يصف حالته مع الفقر نجده يبالغ في ذلك الوصف قائلا:

كيف كنّا نقتات جوعا ونعطي أرذل المتخمين أشهى المطاعم
وجراحاتنا على باب مولا نا تقي الذباب منها ولائم[20]

لقد عبر البردوني عن قلة الحال بقوله: نقتات ليزيد في مبالغته عندما جعل القوت هو الجوع نفسه، لينتقل إلى الصورة المقابلة عند من يجد الطعام مستمرا في مبالغته عندما جعلهم من شعبهم يصلون إلى درجة التخمة، ولا يكتفون بالطعام فقط، وإنما يبحثون عن أشباه، ثم ينتقل إلى قمة المبالغة عندما يصور تلك الاحتفالية الضخمة التي يقيمها الذباب، وتكون معاناتهم وجراحاتهم على باب الحاكم، هي الوليمة التي تدق طبول الذباب عليها، وتتجمع أسرابه لتختلف على مائدتها. صورة ينقلها البردوني من عالم المبالغة لتوضح مقدار المعاناة، وعظم الألم. مبالغة ساخرة يحاول من خلالها أن يوصل رسالة للمسؤول يذكره فيها بما تعانيه الرعية. معاناة تدق طبول الاحتفالات لها لكنها احتفالات ذبابية، تتلذذ بمعاناة شعب.

لم يتوقف البردوني عند هذا الحد من وصف المعاناة بل يستمر في إخراجه لصورها على نحو خاص به:

دخلت الحواري، ومنها خرجـ ت بدكتورة الذّل والمسغبه
عرفت القرارات رغم السطو ح كما تعرف الخنجر الأرنبه
قتلت مرارا فزد مرّة يحسوا بأن القتيل انتبه[21]

لقد ركز البردوني على أن يجعل الذّل الذي عاشه ذلا ليس أمرا عابرا وإنما هو ذلّ بالتخصص، ذلّ يمنح المتخرج منه أعلى الدرجات.

ويستمر البردوني في وصفه لجوعه وما يعانيه من حرمان، وكيف أن ما يملكه هو تلك الذبابات التي يعدها نقوده:

مـن ذا يـذبّ النقـود يـا أمّ عنّـا؟ أصـبحت فوقنـا الـرؤوس عجينـا
أمُّ، هـذا الـذباب يـدعى نقـودا فلتـذبّي هـذا الوبـاء الثّمينـا
أنـت في عريـك الحقيقـي أبهـى مـن حلًى تمتطيـك جوعـا بطينـا[22]

ليصل في فلسفته في المبالغة إلى درجة رؤيته أن الموت بالنقود أشد من الموت نفسه.

أمسـيت لغـوا يـا ردى والقتـل كـالمقتول سـاهي
مـن ذا تُميـت، وكلهـم مـاتوا وأنـت هنـاك لاهـي؟
سـبقتك أمركـة المـذا بـح أيهـا الشـيخ الرّفـاهي
اليـوم للشـيّك الأوا مـر للمـدى كـل النـواهي
أصـبحت يـا مـوتُ احتياطـا مثـل أبطـال المقـاهي
قـد كنـت آجـلا وجـا ء القتـل فـاخترق اتجـاهي
أتخـالُ ذبـح للشـيك أم هـرّ مـن يـد الحتـف الإلهـي؟[23]

لقد بالغ في جعل الموت يُعد في المرتبة الثانية في المقدرة على القتل، بل جعله اللاعب الاحتياطي في مقهى القتل. ليكون الشيك وهو رمز المال هنا أقدر، بل أمضى في القتل.

وفي قصيدته "عام بلا رقم" يبحر في مبالغات في وصف ذلك العام، يحاول من خلالها رسم تلك الصورة السوداوية عن واقعه.

وجهـه بيـدر الجثـث ظهـره مركـب التّفـث
صـبحه الـرّثُ كالـدجى وهـو مـن وقتـه أرّث
كـلّ مجـرى فصـوله جـدثٌ يقتفـي جـدث
أهـو أقصـى مـدى الأسـى؟ أم بدايـة العبـث[24]

إن سخريته من هذا العام تتمثل في عدم معرفته بما يحمله هذا العام من أحداث مأساوية جديدة، فهو لا ينتظر من هذا العام مواكب فرح يزفها للناس، وإنما كل ما يرجو أن لا تكون مصيبته أعظم من سابقه، مع أن كل ما فيه لا يبشر بخير.

لقد جعل البردوني من المبالغة مطية له يركبها في الوصول إلى إبراز ما أراده من أفكار، فهو عندما يريد أن يصور معاناته يحملها فوق ما تحتمله، ويركبها الصعب الذي لا تستطيعه وعندما يريد أن يبين أوضاع مجتمعه يجعلها جحيما لا يحتمل، ومأساة لا تتصور، والهدف من كل هذه لمبالغات هو تحريك كوامن النفوس، وإثارة جوامد الإحساس، لأنه يرى أن جلد الروح قد يقودها إلى التغير، التغير الذي يرى فيه عز أمته، وارتفاع شأن شعبه.

6 -المفارقة:

المفارقة تقوم على إبراز التناقض بين وضعين متقابلين هما طرفا المفارقة[25]، وتتبدى المفارقة في مظاهر شتى تتصل بالوجود والمجتمع والفرد، وتتمثل في أوجه التناقض، والتناقض والتنافر، والتعارض، والاختلاف،....[26]. وتعرف المفارقة بأنها استراتيجية قول نقدي ساخر...، وقد نقول: إن المفارقة هي استراتيجية الإحباط، واللامبالاة، وخيبة الأمل، ولكنها –في الوقت نفسه- تنطوي على جانب إيجابي، فقد تنظر إليها على أنها سلاح هجومي فعال، وهذا السلاح هو **الضحك**، لكنه ليس الضحك الذي يتولد عن الكوميديا، بل الضحك الذي يتولد عن التوتر الحاد، والضغط الذي لابد أن ينفجر[27] من خلال ما سبق سنحاول الكشف عن استخدام البردوني لهذا الأسلوب في تمرده على الظلم، وسخريته من واقع أمته المعاش، وضربه بيد من حديد على كل وضع مزيف يحتاج إلى تصحيح، حياة تجتمع فيها الجراحات:

أبكي فتبتسم الجراح من البكا فكأنها في كل جارحة فم
يا لابتسام الجرح كم أبكي وكم ينساب فوق شفاهه الحمراء دم
أبدا أسير على الجراح وأنتهي حيث ابتدأت فأين مني المختم[28]

تلك الجراحات التي مزقت قلبه وجعلته يعيش مع هذه الحياة التي تفتخر بالذل والهوان.

ونهضت والدنيا كما كانت تفاخر بالصّغار
وتهاوت الدنيا التي خلق افتناني وابتكاري
فوددت لو ألقى كذاب الـ ليل صدقا في النهار[29]

فبدل أن تفتخر الدنيا بالعزّ والمعالي، وجدها البردوني تفتخر بالصغار، والذل، هذه الحياة التي يتمتع بالحياة فيها من كانت طباعه طباع الوحوش، والحيات.

وسألتها: ما الأرض؟ قالت إنها فلوات وأحاش وروض صلال
إن كنت محتالا قطفت ثمارها أولا: فإنك فرصة المحتال[30]

هذه المفارقة الساخرة من الواقع المعاش، فالحياة غابة لا مجال فيها للضعيف، فإما أن تكون وحشا مفترسا وتأكل كل من يقابلك، وإما أنك ستكون فريسة سائغة للآكلين.

هذه النظرية التي تعب البردوني في فك شفرات حلها، كانت تؤرقه صباح مساء، فلا يجد لها حلا:

مـــا كـــان أذكـــى مرشـــدا وأبـــر طلعتـــه الزّكيـــه
كـــان ابتســـامات الحزينـــ ـــن وفرحـــة الـــنفس الشـــجيه
عينـــاه مـــن شـــغل الرشـــا دوكلّـــه مـــن عبقريتـــه
إن لـــم يكـــن فـــي الأنبيـــا ء فروحـــه المثلـــى نبيّـــه
قتلتـــه فـــي الـــوادي اللصـــو ص فغـــاب كالشـــمس البهيّـــه
كـــان ابـــن عمّـــي يزدريـــه فـــلا يضـــيق مـــن الزّريّـــه
ومـــن ابـــن عمـــي؟ جاهـــل فـــظّ كليـــل الجاهليـــه
يرنـــو إلينـــا... مثلمـــا يرنـــو العقـــور إلـــى الضـــحيّة
نعـــرى، ويســـبح فـــي النقـــود وفـــي الثيـــاب القيصـــرية
ونـــذوب مـــن حـــرق الظمـــاء وعنـــده الكـــأس الرّويّـــه
والكـــرم فـــي بســـتانه يلـــد العناقيـــد الجنيّـــه[31]

لقد صور البردوني الواقع كما هو، فالذكي المتوقد/ لا نصيب له في هذه الحياة، والجاهل الفظّ المتغطرس يملك كل مقومات الحياة الكريمة، إنها مفارقة عجيبة يعيشها البردوني ويصورها لنا في هذا المشهد لأبناء العمومة، ثم يزيد من سخريته اللاذعة عندما يجعل هذا الجاهل لا يكتفي بما لديه، وإنما ينظر إليهما نظر الضحية التي يجب أن يستمتع بها أيضا، وتكتمل فصول هذه المفارقة في طريقة موت الذكي نهبا من اللصوص فأي شيء سيجدونه عند هذا الفقير الذي لا يملك إلا ذكاءه، بينما يعيش هذا الغني حياته بكل سلام ورغد عيش، وكأنه يقول لنا يموت صاحب العقل من أجل عقله، ويعيش الجاهل بجهله.

تغنّى البردوني بمفارقاته على صدر جراحات الأمة عسى أن يجد بلسما شافيا يداوي به الجراحات، قاد بمفارقاته أمته إلى طريق يأمل فيه أن يوصلها إلى نبع عزة صاف لا يكدره الخنوع والخضوع.

خاتمة :

ونخلص إلى القول: أن السخرية فن من الفنون الأدبية، التي يستطيع من خلالها الأديب أن يعبر عن مشاعره، و آماله، و يستطيع من خلالها أيضا أن يرسم توجهاته و أفكاره .

واستخدام البردوني للأسلوب الساخر، وإن كان فيه تنفيس عن مشاعره ،إلا أن هدفه الأساس هو إيقاظ أمته من سباتها لتقف في وجه كل من سلبها حقوقها ،هذا ما جعله ينوع في أساليبه الساخرة، فتنوعت بذلك الدلالات ، و هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أنه متمكن و قادر على استيعاب فنون هذا الأسلوب الأدبي ،و ذلك من خلال اطلاعه على التراث العربي و الغربي ،كما أن روحه الفكاهية كان لها أثر واضح في تبنيه لهذا الأسلوب .

الهوامش :

(1)- ديوان المتنبي، شرح عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1407، ص167.

(2)- أدونيس، مقدمة الشعر العربي، دار العودة، بيروت، ط3، 1979، ص41.

(3)- في النص الأصلي (إله الحب).

(4)- أحمد اسماعيل، عبد الله البردوني حياته وشعره، مركز الحضارة العربية ،ط1418،1هـ،1998م، ص129.

(5)- ديوان البردوني، إصدارات الهيئة العامة للكتاب ، صنعاء، 1423هـ ، 2002م، ج1، ص404.

(6)- ديوان البردوني، ج1، ص368.

(7)– القثار: القتارة: آلة الطرب ذات ستة أوتار (المعجم الوسيط، ص768).

(8)– اليباب: الأرض الخراب.

(9)– تدوير البيت في الأصل.

(10)– ديوان البردوني، ج1، ص491.

(11)– ديوان البردوني، ص1121.

(12)– ديوان البردوني، مصدر سابق، ص135.

(13)– المصدر نفسه ، ص137.

(14)– وليد المشوح، الصورة الشعرية عند البردوني، كتاب الرياض، مؤسسة اليمامة الصحفية، 2000م، ص240.

(15)– ديوان البردوني، ص178.

(16)– المصدر نفسه، ص178.

(17)– عامر الحلواني، أساليب الهجاء في شعر ابن الرومي مقاربة أسلوبية في جمالية القبح، مطبعة التفسير الفني تونس، ط1، ص40.

(18)– إيليا حاوي، فن الهجاء وتطوره عند العرب، بيروت ، دار الثقافة ، 1418هـ، 1998م ، ص498.

(19)– ديوان البردوني، ص89، 90.

(20)– ديوان البردوني، ج1، ص381.

(21)– ديوان البردوني، ج1، ص383.

(22)– المرجع نفسه ، ج2، ص823.

(23)– ديوان البردوني، ج2، ص987-988.

(24)–المصدر نفسه، ج2، ص1014.

(25)– علي العشري، بناء القصيدة العربية الحديثة، مكتبة الشباب، ط1، 1998م، ص138.

(26)– المفارقة في شعر عدي بن زيد، ص11.

(27)– أسيا قاسم، المفارقة في القص العربي المعاصر، ، مجلة فصول، مارس 1982م، ص143-144.

(28)– ديوان البردوني، ص112.

(29)– ديوان البردوني، ص215.

(30)– ديوان البردوني، ص224.

(31)– ديوان البردوني، ص234.